المكتبة و التاريخ والذاكرة الجماعية *

جامع بيضا

1. من الخزانة إلى المكتبة

ترمز "الخزانة" إلى الخزان والمستودع والمخزن؛ أي الصيانة والانغلاق. بينما تحيل "المكتبة" على الكتاب والمكتوب بكل أصنافه، وإلى الانفتاح. وباللغة الفرنسية، تستمد كلمة Bibliothèque أصلها الايتيمولوجي من الكلمة الإغريقية bibliothêkê أي "المكان الذي توضع فيه الكتب". ومرادفها الإنجليزي Library يحيل أيضا على الكتاب. وطبعا، فإن محتويات المكتبة العصرية لم تعد تقتصر على الكتاب والمكتوب، بل تجاوزتها إلى وسائل أخرى لنقل المعرفة مثل الميكروفيلم والميكروفيش والأسطوانات والتسجيلات المغناطيسية وأشرطة الفيديو والأقراص المضغوطة الخ. وربما تضمنت أجنحة تعرض فيها تحف نادرة من المخطوطات واللوحات أو الميداليات أو غيرها.

المكتبات أنواع مختلفة باختلاف أهدافها وباختلاف روادها. فمن مكتبة الزوايا والمساجد إلى مكتبة الحي، إلى المكتبة المدرسية أو المكتبة البلدية والمكتبة الجامعية ومكتبات المعاهد المتخصصة، إلى مكتبات بعض المؤسسات الثقافية الدولية أو مكتبات البعثات الأجنبية. ثم على رأس الهرم تتربع المكتبة الوطنية التي من المفروض أن يكون طموحها أكبر وإمكانياتها أعظم حتى تتمكن من الاستجابة لرغبات جمهور عريض ومتخصص في الوقت ذاته.

وللمكتبة الوطنية مهمتان أساسيتان:

(*) أصل هذا المقال عرض ألقي في الخزانة العامة بالرباط يوم 15 مارس 2001 بمناسبة المائدة المستديرة التي نظمتها جمعية أصدقاء المكتبة الوطنية حول موضوع "المكتبة الوطنية والتاريخ والذاكرة"

- مهمة تقنية تكمن في مسايرة الجديد في عالم الفكر والثقافة لاقتناء كل ما من شأنه أن يرضي الجمهور. وفهرسة هذا الرصيد والتعريف به، وصيانة المتلاشي منه. وهذا يتطلب متخصصين ووسائل تقنية متطورة.

- مهمة خدمة الجمهور بإرشاده وتوفير مادة البحث له للاستجابة لفضوله وحاجياته. وهذا ليس بالأمر الهين إذ يفترض أن يكون المرشد متمكنا من حقول معرفية شتى وممتلكا لمستوى ثقافي واسع الأفق. وقد يسرت مهمته نسبيا المعالجة المعلوماتية لمواضيع رصيد المكتبة.

2. التاريخ والذاكرة الجماعية

تعتبر المكتبة بالنسبة للمؤرخ خزانا لشواهد الماضي، البعيد منه والقريب والراهن. وربما كان حتى الوعاء – أقصد البناية – شاهدا معماريا ينضاف بأهميته كموقع الذاكرة إلى ما يحتضنه من كتب ومستندات ووثائق. فبمقدار غنى هذا المستودع بمقدار ما تتاح للباحث المؤرخ فرصة فتح نوافذ على الماضي في محاولة لإعادة بناء أحداثه ووقائعه. فالمكتبة إذن تنقذ من النسيان أعمال وأخبار الأولين. ويساهم المؤرخ باستغلال مادتها المصدرية في الوعي بالتاريخ. وعمل المؤرخ يبدأ عندما تفتح له مستودعات الوثائق أو تبوح له الأرض بكنوزها الأركيولوجية. إن شواهد الماضي تتحول، بإرادة أو بغير إرادة صانعيها، إلى وثائق تاريخية. غير أنها تصبح أيضا مادة لصنع الذاكرة الجماعية. فالنسيج واحد، الماضي، ولكن التعامل معه مختلف. فالماضي يتحكم في المؤرخ ويجبره – بواسطة المادة المصدرية التي لم يطوها النسيان – على أن يطرح إشكاليات معينة ويحاول الإجابة عن أسئلة مضمرة في تلك المادة. أما الذاكرة الجماعية، فتستوحي أسئلتها من الحاضر وتبحث عن الأجوبة في الماضي.

إن الذاكرة الجماعية انتقائية بطبيعتها، وهي وسيلة تروم منها جماعات معينة إلى تخليد صفحة من صفحات ماضيها لضرورات آنية أو تطلعات مستقبلية. وهذه الضرورات والتطلعات تدفعها أحيانا إلى تطويع المعطى التاريخي وتحريفه عن وعي أو غير وعي،

حتى يتناغم مع رغبتها أو مصلحتها. فالذاكرة الجماعية هنا إذن من نسج الخيال، قد يتفق قليلا أو كثيرا مع الواقع التاريخي، وكأنه قصة تاريخية أو تاريخ بتصرف.

إن المجتمع – أو السلطة – يطالب المؤرخ بين الفينة والأخرى- باسم واجب الذاكرة – أن يساهم في تخليد حدث ما، غير أن التخليد عادة ما يعزل الحدث عن سياقه تعسفا، في حين أن مقاربة المؤرخ لا تستقيم إلا بمعالجة الوقائع في إطار تطور تتحكم فيه عناصر مختلفة – ومعقدة – في مقدمتها الزمان والمكان . ويجد المؤرخ نفسه بين خيارين:

- كتابة التاريخ وفق منهج أكاديمي، والنتيجة قد تكون مغايرة لما كان منتظرا منه.

- أم مقاربة الموضوع "حسب الطلب "، والنتيجة هي المساهمة في صنع الذاكرة الجماعية وليس كتابة التاريخ.

إن تخليد الذكريات عملية تتحكم فيها أهواء واختيارات الحاضر. فالذكريات المحتفى بها ليست بالضرورة أعظم شأنا من غيرها. إن الهدف من التخليد هو- كما تذكرنا بذلك ودون ملل وسائل الإعلام وأبواق الدعاية في كل مناسبة -" كي لا ننسى". إنها مهمة بيداغوجية. ولكن تخليد بعض الصفحات التاريخية تتم بالضرورة على حساب صفحات أخرى، وكأن هنالك دعوة ضمنية إلى نسيانها. ثم لماذا تخلد الانتصارات دون النكسات؟ إذا كان الهدف هو استخلاص العبر، أليست في الأولى أكثر من الثانية؟ هل تخليد معركة وادي المخازن حافل بالعبر، ومعركة وادي إيسلي مفتقرة إليها تماما؟

- أية مكانة للمعرفة التاريخية في المجتمع؟ من ينتج الكتابة التاريخية ومن يستهلكها؟ ألا يفضل عموم القراء الخلود إلى الذاكرة الجماعية المريحة بدلا من ولوج الدروب الصعبة للدراسات التاريخية؟ أليس في نهاية المطاف منتج الكتابة التاريخية هو نفسه مستهلكها؟ ألا يكتب المؤرخون المحترفون لزملائهم قبل غيرهم؟ للخروج من هذه الدائرة الضيقة، ألا يضطر بعض محترفي صناعة التاريخ أحيانا إلى مغازلة القراء، فيتخطون- عن وعي أو عن غير وعي- الحدود المبهمة الفاصلة بين التاريخ والذاكرة الجماعية؟ ألا تملك الذاكرة الجماعية التي تدغدغ المشاعر جاذبية أقوى من جاذبية التاريخ؟ أليست دروس التاريخ في الكتب المدرسية المغربية أقرب إلى صفحات الذاكرة الجماعية منه إلى التاريخ؟

ألا تتعايش في كل مؤرخ صرامة الباحث العالم الموضوعي الذي لا دين له ولا وطن ولا مذهب[1] ومشاعر الإنسان العادي المنتمي إلى مجتمع معين وثقافة معينة واقتناعات مذهبية وعقدية يتفاعل معها بالضرورة وبشكل من الأشكال؟ كيف يعيش المؤرخ هذه الازدواجية؟ هل المؤرخ المغربي يدرس تاريخ المغرب لأنه يحب وطنه المغرب أم لأنه يعشق التاريخ ويحترفه؟

قيل إن الشعوب شغوفة بالتاريخ. ولكن، هل هي فعلا شغوفة بكل التاريخ أم ببعض التاريخ؟ هل هي شغوفة بما يصدم مشاعرها أم فقط بما يناسب أهواءها في زمن من الأزمان؟

هل المؤرخ مجرد خبير يستطيع الانفصام عن محيطه وعن الذاكرة الجماعية التي هو طرف فيها؟ فالماضي حاضر في المؤرخ وفي غير المؤرخ. فقد يود البعض، خاصة المؤرخ المحترف، دراسته دراسة موضوعية لفهم الحاضر واستشراف المستقبل (المقاربة الأكاديمية). وقد يود البعض الآخر، شخصا كان أو مؤسسة، مراقبة هذا التاريخ و توظيفه توظيفا سياسيا يمكنه من ترسيخ سلطة أو إسدال المشروعية على عمل (مراقبة التاريخ). وقد ينزعج البعض من ثقل التاريخ ورهاناته فيود محو بعض آثاره. ما الذي جرى في مخيلة الطالبان وهم يأمرون بتدمير تراث إنساني عمر قرونا في ديارهم لأنهم شعروا بغتة أنه لم يعد يتفق ومعتقداتهم؟ فهل تصرفهم إفراز للذاكرة الجماعية الأفغانية أم أنهم هتكوا عرض التاريخ لتأسيس ذاكرة جماعية جديدة؟

وفي ديار أخرى أكثر تمدنا، يتم إبراز أعلام ساهمت في تحرير البلاد بالأمس ويتم في الوقت ذاته تغييب أسماء أخرى، ويكون لذلك بطبيعة الحال أثر في الكتب المدرسية وفي الذاكرة الجماعية." فالمؤرخ المنصف يجد اليوم صعوبة بالغة في إفهام الفرنسيين أن أول جيوش التحرير– أي جيش التحرير الذي انطلق من بروفانص– كان معظمه من الرماة المغاربيين [...]. إنها أمور نسيها الفرنسيون، أو تناسوها، لأن أسماء المدن لا تتحدث[...] عن الجنود المغاربيين، والمغاربة بينهم[...] وباختصار، لا وجود في ليون Lyon لأسماء

(1) « Le bon historien n'est d'aucun temps ni d'aucun pays: quoi qu'il aime sa patrie il ne la flatte jamais en rien »,(Fénelon)

جنود مغاربة من التجريدة الثانية. لكن فيها شوارع تحمل أسماء جنود فرنسيين، كلوكليرك وديبكو بروسي [...] [2] ".

وكما يتم تغييب أسماء جنود وشخصيات في أزقة وشوارع مدينة من المدن الفرنسية، يلجأ البعض الآخر في روسيا إلى استبدال اسم مدينة بآخر لسبب من الأسباب. فهاهي مدينة مثل Tsaritsyne تتحول بعد الثورة البلشفية إلى Volgograd، ثم إلى Stalingrad (1925—1961) لتعود إلى اسم فولكوكراد مجددا بعد الحملة اللاستالينية التي قادها خروتشوف. إنها باختصار مسألة مواقع الذاكرة Lieux de mémoire التي تدور حولها " حروب الذاكرة " في أكثر من جبهة بين الأطراف المتصارعة.

- تعدد رموز الذاكرة حتى طالت أسماء الأشخاص. فحينما صدر قرار إداري في المغرب المستقل لإجبار المواطنين على عدم إطلاق أسماء معينة على فلذات أكبادهم والالتزام بتلك المنصوص عليها في اللائحة الرسمية دون سواها، فذلك إقصاء يروم محو ذاكرة وتعويضها بأخرى.

إن السلطة السياسية، بألوانها المختلفة، كثيرا ما تسعى إلى مراقبة التاريخ والذاكرة الجماعية معا. وتسخر لبلوغ مناها وسائل متنوعة بدءا بمؤرخيها الرسميين وغير الرسميين، ومرورا ببرامج مؤسساتها التعليمية، واحتفالاتها الموسمية بما ارتأت تخليده كأحداث تاريخية، ونهاية بالمطرقة اليومية التي تشكلها وسائل إعلامها المكتوبة والمسموعة والمرئية. وقد تستغرق المغالطات زمنا قصيرا أو أجيالا. فمن المعروف منذ 1936 أن ستاخانوف عامل منجمي سوفياتي حقق أرقاما قياسية في الإنتاج وزينت صوره المعامل وذاع صيته في البلاد وأصبح مثالا مشرقا يقتفى أثره. غير أن الأرشيف السوفياتي المفتوح بعد سقوط النظام البلشفي بين أن " الستاخانوفية " كانت مجرد أسطورة نسجت خيوطها من طرف خبراء فبثت في المعامل ووسائل الإعلام والكتب المدرسية وتربعت في الذاكرة الجماعية لردح من الزمن.

- فكم هي الصفحات " التاريخية" التي تصنعها السلطة وتخلق لها كل ظروف البروز؟ وكم هي الصفحات التاريخية الحقيقية التي تطمس بإرادة مبيتة لغرض في نفس يعقوب؟

(2) حوار مع المؤرخ الفرنسي دانييل ريفي Daniel Rivet، العلم 20 يونيو 2001، ص. 14.

وفي هذا الصدد يقول زعيم عربي وهو يتحدث من موقع العارف بكنه الأمور (1977):

- " إن الحقائق المكتوبة ليست هي كل الحقائق النهائية، حتى وإن اتفق عليها جميع المؤرخين والمحللين، لأن في كل مرحلة من مراحل التاريخ ما هو دفين لا يقال لاعتبارات شتى، وقد لا يكون ذلك الدفين أمرا ثانويا، وإنما قد يكون رئيسا ومن الأمور الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المهمة...

وهذه المسألة لا نثبتها جزافا، وإنما نحددها بمسؤولية ووعي كاملين[3]".

مهما طال الزمن، لا مفر من ظهور دعاة " واجب الذاكرة" الذين يطالبون بإعادة الأمور إلى نصابها الطبيعي، فيدخلون في مواجهة - تتغير حدتها حسب الزمان والمكان وموضوع الخلاف - مع أولئك الرافضين لنبش صفحات الماضي حرصا على الحفاظ على الأمر الواقع Statu quo أو خشية أن تفرز حروب الذاكرة عناصر التفرقة في المجتمع وعراقيل التقدم نحو غد أفضل. ومرة أخرى، يتم الاحتكام إلى المؤرخ المتسلح بالتريث والذي يتحاشى الحكم القطعي، فيرسم لموضوع الصراع لوحة قد لا ترضي "الأبطال" و لا " الضحايا" لأن لوحات التاريخ ليست على الدوام بيضاء ناصعة أو سوداء حالكة.

إذا كان موضوع الذاكرة حقلا قد استأثر منذ زمن باهتمام الفلاسفة والأدباء وعلماء النفس والأنثروبولوجيا والاجتماع، فإن مقاربة المؤرخين له جاءت متأخرة إذ لم تترسخ إلا بعد أعمال فرناند بروديل المتعلقة ب المدة الطويلة /La longue durée. فلعقود وقرون ساد التاريخ الحدثي الذي لا تهمه إلا المعارك الكبرى والرؤوس المكللة بالتيجان. وبدأ التخلي عن هذه الدروب شيئا فشيئا بفضل إنجازات مدرسة الحوليات ثم مدرسة التاريخ الجديد التي أولت ملف الذهنيات اهتماما خاصا.

وازداد اهتمام التاريخ بفهم ميكانيزمات الذاكرة الجماعية نظرا للدور الأساسي الذي أصبحت تلعبه في الوقت الحاضر في بناء - أو إعادة بناء - القوميات الوطنية بعد نهاية الحرب الباردة وارتفاع أصوات الأقليات الإثنية والدينية واللغوية في أقطار مختلفة من المعمور. فعند هؤلاء وأولئك يحيد التاريخ عن وظيفته المعرفية ليلعب وظيفة

(3) صدام حسين: حول كتابة التاريخ، منشورات الثورة، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978، ص.12.

الذاكرة...الرامية إلى إضفاء المشروعية على برنامج معين. وكلما انتشرت"حروب الذاكرة" واشتدت ضراوة النقاش والسجال[4]، كلما أصبح المؤرخ في موقف حرج وازدادت مسؤوليته جسامة. فالبعض يريده أن يمثل تحت قبة "محكمة التاريخ" في زي المحامي أو المدعي العام أو القاضي، غير أنه عادة ما يتشبث بدوره كخبير يقدم تقريره- القابل للطعن والاستئناف بعد الاستماع لمختلف الشهادات وبعد استنطاق شتى المصادر والمراجع والوثائق التي تجود بها المكتبات ودور المحفوظات والمستندات.

- بيبليوغرافيا مختارة

- كرزيستوف بوميان:" الكتابة التاريخية بين الاحتراف والهواية "، تعريب عبد الأحد السبتي، فكر ونقد، الرباط، العدد 34، دجنبر2000، ص.43–52.
- بول ريكور:"كتابة التاريخ وتمثل الماضي"، تعريب محمد حبيدة، مدارات فلسفية، الرباط، العدد2001،6، ص. 131 – 146.

- HALBWACHS, Maurice- La mémoire collective; PUF, Paris, 1950.
- VEYNE, Paul- Comment on écrit l’histoire; suivi de: Foucault révolutionne l’histoire; Ed. du Seuil, coll. Points, 1978.
- FURET, François- L’atelier de l’histoire; Ed. Flammarion, 1982.
- RICOEUR, Paul-La mémoire, l’histoire et l’oubli; Ed. du Seuil, 2000.

جامع بيضا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط

(4) شهدت الساحة المغربية مؤخرا هذا النوع من "حروب الذاكرة" بمناسبة فتح ملفات ساخنة كقضية الاعتقال القسري خلال العقود الأخيرة (تازمامارت- درب مولاي الشريف..) وقضية اختفاء المهدي بنبركة في أكتوبر 1965.